﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾ [سبأ: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّرهيبُ بعدَ التّرغيب، وبيانُ من كذّبَ بالسّاعة بعدَ وضوحِ براهينِها

لَمّا بيَّن اللّهُ تعالى حالَ المؤمنينَ والجزاءَ المُعَدَّ لهم يَوْمَ القيامةِ في الآية السّابقةِ: بيَّنَ في هذه الآية حالَ الكافِرينَ[1]، والعذابَ المُعَدَّ لهم؛ وتكونُ المناسبةُ بينهما من باب التّرهيبِ بعد التّرغيب، ومناسبةُ الآية لِما قبل الآية السّابقةِ من سياق مُفتتحِ السّورةِ أنّه لَمّا كانت أدِلَّةُ السّاعةِ قد اتَّضَحت، حتَّى لم يَبْقَ مانِعٌ مِنَ التَّصديقِ بها إلّا العِنادُ، وكان السّياقُ لتَهديدِ مَن جَحَدها: بيّن في هذه الآية سلوكَ الجاحدين الكافرين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَعَوۡ﴾: (سعى) أصلٌ يدلّ على تسيُّبِ جِرم الشّيء المجتمعِ وذهابِه شيئًا فشيئًا[3]، ومنه السَّعيُ وهو المَشي السَّريعُ، وهو دون العَدْوِ[4]، ثمّ استعمِل للجِدّ في الأمر خيرًا كان أو شرًّا؛ وقالَ الزَّجّاجُ: أَصلُه في كلامِ العَرَبِ التَّصرُّفُ في كُلِّ عَمَلٍ؛ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النجم: 39]، مَعْناهُ إلّا ما عَمِلَ[5]، والسَّعْيُ في الآية مُستعارٌ للاجتهادِ في العَمل، أي: سعَوا في آياتنا مُجتهدينَ في إبطالها[6].

2) ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: (أيي) أصلٌ يدلّ على بقاء الشّيء في مكانه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 448.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سعو/ سعى).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سعى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سعي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.

شاخِصًا علامةً لشيء[1]؛ ومنه الآيةُ، وهي العلامةُ الثّابتة الدّالَّةُ على أَمْرٍ من شأْنه أن يَخفى[2]، والآية الجماعةُ منَ النّاسِ، وخَرَجَ القومُ بآيَتِهم، والآياتُ منَ القُرْآنِ، والجَميعُ الآيُ؛ وسُمّيت آيةُ القُرآنِ بذلكَ لأنَّها جماعةُ حُروفٍ، وقيلَ: لأنَّها علامةٌ لانقطاعِ الكلامِ الَّذي بعدَها، وقيلَ: لأَنَّها دالَّةٌ على انقِطاعها عنِ المخلوقينَ، وأنَّها ليست إلّا من كلامِ اللَّه تعالى[3]، والآيةُ أيضًا: العِبرةُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرةً يُعتَبر بها[4]، والمقصودُ بالآيات في الآية: القُرآنُ، كما يدُلُّ عليه قولُه بعدُ: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[5].

3) ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: (عجز) أصلٌ يَدُلُّ على الضَّعْفِ؛ يُقال: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فَهوَ عاجِزٌ، أَيْ ضَعيفٌ[6]، والعجزُ أصلُه التّأخُّرُ عنِ الشّيء، وحصولُه عند عجُز الأمرِ؛ وصار في التّعارفِ اسمًا للقصور عن فعل الشّيءِ، وعَجَّز الرَّجُل وعاجَزَ: ذهب، فلَم يوصَل إليه؛ والمُعاجزُ: المُسابِقُ الطّالبُ عَجْزَ مُسايِرِه عنِ الوُصولِ إلى غايته وعنِ اللِّحاقِ به[7]، وهو في الآية حالٌ لبيان الغاية منَ السَّعي الآثمِ في آيات الله، وأنَّه لم يكن سعيًا للإفادة منها، والاهتداءِ بهديها، وإنَّما هو سعيٌ لحجبها عنِ النّاس، ولتعجيزها، وإعجازِ النّاس عنِ الوصول إليها[8].

4) ﴿رِّجْزٍ﴾: (رجز) أَصلٌ يدلُّ على الاضطرابِ والمَيْلِ؛ يُقال: تَرَجَّزَ الرَّجُلُ: إذا مالَ وتَحَرَّكَ تَحَرُّكًا بَطيئًا[9]، ومِنْهُ الرَّجَزُ: وهو داءٌ يُصيبُ البَعيرَ، فَتضطربُ فَخِذاهُ إذا أَراد القيامَ، والرِّجْزُ - بِكَسْرِ الرّاءِ وضَمِّها: العَذابُ؛ وقيل: هو العَمَلُ الذي يُؤَدّي إلى العَذابِ[10]؛ ورِجْزُ الشَّيْطانِ: وساوِسُهُ؛ ويأتي الرِّجْزُ والرُّجْزُ بِمعنى الصَّنَمِ والوَثَنِ؛ وقيل: عِبادَة الأَوثانِ؛

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَيَّى).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/ 108.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (إيي).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 143.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 295.
(8) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 11/ 778.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجز).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رجز).

وقيل: هو الشِّرْكُ مُطْلَقًا، لأنّ مَن عَبَدَ غير الله تعالى فهو على شَكٍّ مِن أَمْرِهِ واضْطِرابٍ في اعْتِقادِهِ[1]؛ ومِن مَعانيه أيضًا: الإثْمُ، والقَذَرُ، والرِّجْسُ[2]، والمقصودُ بالرِّجْزِ في الآية: أَسوأُ العذابِ[3].

5) ﴿أَلِيمٌ﴾: (ألم) أصلٌ يدلُّ على الوَجَعِ[4]، قال الخليلُ: الأَلَمُ: الوَجَعُ، يُقالُ: وجَعٌ أَليمٌ، والفِعْلُ من الأَلَمِ: أَلِمَ، وهو أَلِمٌ[5]؛ والتَّأَلُّمُ: التَّوَجُّعُ؛ والإيلامُ: الإيجاعُ؛ والأليمُ: الموجِعُ، فهو على هذا القياسِ فَعيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ، مثل السَّميع بمعنى المُسمِعِ[6]، والعَذاب الأَليمُ: الَّذي يَبْلغ إيجاعُهُ غايةَ البُلوغِ[7]، والمقصودُ به عذابُ جهنَّم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العذابُ الأليمُ للكافرين المعاندين

تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ أنّ الَّذين اجتَهَدوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى المُنزَلةِ على رسول الله ﷺ، وصَدِّ النّاسِ عنها، فسمَّوْها تارةً سحرًا، وتارةً شعرًا، وتارةً أُخرى أَساطيرَ الأَولين، ظانّين إبطالَ آياتِ الله أو تعجيزَها عن أَن تصل إلى النّاس في نقائها وصفائِها، لتعملَ عملَها الطيِّبَ المُباركَ في القلوب، فتهديَها إلى الحقِّ والنّور، أو أنَّهم يعملون على تعجيز المؤمنين عن تكثير أتباعِها: هؤلاء لهم - دون سواهم - عذابٌ بالغُ السّوء في إيلامه[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ وصلِ هذه الآيةِ بسابقتِها:

المُقابلةُ بين عاقبةِ الأبرارِ والفُجّارِ

وُصل قولُ الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجز).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رجز).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 144.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألم).
(5) الخليل، العين: (ألم).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ألم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ألم).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 261، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 495، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 245.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ بالآية السّابقةِ لِما بينهما من شدّة الاتّصال، من باب ذكرِ عاقبةِ الفُجّارِ بعد عاقبة الأبرار، لأنّ الذين سَعَوا في آيات الله معاجزين همُ الفريقُ المُقابِلُ للذين آمنوا؛ فمعناه: (والذين استمرّوا على الكفر وثبّطوا النّاس عن مُتابعة النَّبي ﷺ - ظَنًّا منهم أنَّهم يُعجزوننا، وأنَّهم لا يُبعثون، فهم يثبّطون النّاس ويعوِّقونهم عنِ الإيمان بالله وبما جاء به رُسُل الله، تضليلًا عنِ الحقّ، وإغراءً وإغواءً - أولئك لهم العذاب)[1]، فهو تفصيلٌ لحال المُشركين، بعد تفصيلِ حال المؤمنين، حيث بَشَّر المؤمنين أوّلًا، وأنذر الكافرين ثانيًا؛ وحينئذ يكونُ هذا في مقابلة ما تقدّم، لأنَّ قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ معناه: صَدَّقوا، وهذا معناه كذَّبوا[2].

سرُّ المقابلةِ بين الإيمان والتّكذيب:

من بلاغة أسلوب القرآن التّرغيبُ والتّرهيبُ

إنّ من سماتِ الخِطابِ القرآنيِّ أنْ يكونَ جامعًا بيْنَ أسبابِ الخَوفِ وأسبابِ الرَّجاءِ، وهو ما يُعرفُ بأسلوب التّرهيبِ والتّرغيب، كما في هذه الآية والسّابقةِ عليها: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الخَوفُ فقط فقد يَستولي على القَلبِ القُنوطُ من رحمةِ اللهِ، وإذا ذُكِرَ الرَّجاءُ فقطْ فقد يَستولي عليه الأمنُ من مَكرِ اللهِ ﷻ[3]؛ لذلك كانت عنايةُ القرآن بهذا الأسلوب البديع، لتأثيره النّفسيِّ على الإنسان.

سرُّ العدولِ إلى الجملة الاسميَّة:

السّعيُ في الصدِّ عن آيات الله من سجايا المَوصوفين

كان المتبادرُ إلى الذِّهن أن يكون نسقُ الآية بالجملة الفعليّة، بأن يُقال: (ويجزي الذين سعوا)، لكن عُدل عنه إلى التّعبير بالجملة

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 261.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193.
(3) العثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 55.

الاسميّة: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾، لقصد التَّأكيد على أنَّ سعيَهم في صدّ النّاسِ عن آيات الله وصرفِهم عنها: من سجاياهم، فهم لا ينفكّون عن ذلك.

بلاغةُ العدولِ عن مطابقة لفظ الإيمان:

التَّمهيدُ لإبطال قـول المشركين في الـقـرآن وفي الرّسول ﷺ

يعدِل النَّظمُ القرآنيُّ في التَّعبير عن صيغةٍ إلى صيغة أخرى، وعن كلمة إلى كلمة أخرى لأغراض بلاغيَّة تُفهم من خلال السّياق، وتُكشَفُ بعد التَّأمُّل والنَّظر، فقولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾، وكان المتبادَرُ إلى الذِّهن أن تُجعلَ صلةُ اسم الموصول مطابقةً لسابقتها، بأن يُقال: (والذين كفروا) كما قيل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لكنْ عُدِل عن ذلك إلى الوصف بالسّعي في آيات الله بالمعاجزة: لتصلُحَ الجُملةُ أن تكون تمهيدًا لإبطال قولِ المشركين في الرَّسول ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ [سبأ: 7-8]، ولتبكيتهم بالجُرم الذي استحقّوا به أشدَّ أنواع العذاب، حيث لم يكتفوا بالكفر فحسْب، بل سَعَوا بكلِّ ما أوتوا لإبطال آيات الله والصدِّ عنها[1].

بلاغةُ الإيجازِ بحذف متعلّق السَّعي:

كـونُ المـحـذوفِ مـفـهـومًـا مـن السّياق

السّعيُ في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ مفتقرٌ إلى ما يخصِّصُه ويبيِّنُ نوعَه، إذِ السَّعيُ يُطلَق على الجِدِّ في الفعل، خيرًا كان أو شرًّا، مأخوذٌ منَ المشي السّريع، ويدلّ قولُه تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ على تقدير المحذوف، أي يسعَونَ بالإبطال وتعويق النّاس عن آيات الله وتزهيدِهم فيها[2]، فإنْ قيل:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 778، ومرعي، البلاغة القرآنيَّة، ص: 48.
(2) ابن عجيبة، البحر: 6/ 63، والمظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 7.

من أين عُلم كونُ سعيهم في الإبطال والتَّعويق والتّزهيدِ؟ فالجواب أنّ هذا معلومٌ من قوله تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾، لأنَّه حالٌ معناه: (سعوا فيها وهم يريدون التَّعجيز)[1]؛ وهذا الإيجاز من أبلغِ الإعجاز الذي تَميَّز به البيانُ القرآنيُّ.

بلاغةُ التّعبير بالسَّعي:

بيانُ اجتهادِهم في رَدِّها والتَّكذيبِ بها وصرفِها عن طريقها

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالسَّعْي في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ دون غيره لأنّه يُطلقُ على الاجتهاد في العملِ، سواءً لإصلاحِه أو لإفسادِه، فمِن استعمالِه في الإفسادِ قولُه تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ ومِنْ إطلاقِه في الإصلاحِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورٗا ٢٢﴾ [الإنسان: 22]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩﴾ [عبس: 8 - 9]؛ ومِن إطلاقِ السَّعي على الخيرِ والشَّرِّ مَعًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل: 4][2].

ولمّا كان السَّعيُ يُستعمَل في الخير والشرِّ مع الاجتهاد الدّؤوبِ أوثرِ التَّعبيرُ به، لأنّ المُرادَ هُنا اجتهادُ المشركين في رَدِّ الآيات، وجِدُّهم في التَّكذيب بها، فهو سعيٌ للباطل والضَّلال، حيث يَسعَونَ للتّعجيزِ عن آيات الله بصرفها عن طريقها، والطَّعنِ فيها؛ فسمَّوها سحرًا، وشعرًا، وأساطيرَ الأوّلين، وثبَّطوا النّاسَ عنِ الإيمان بها[3].

وفي التَّحذيرِ مِن سَعيِ الإنسانِ في إبطالِ آياتِ اللّهِ تعالى أمرٌ بضدِّه، فالآيةُ مُتضَمِّنةٌ الحثَّ على السَّعي في آياتِ الله لِتَقريرِها وتَثبيتِها، دون صرف النّاسِ عنها؛ لأنَّنا مأمورونَ بأنْ نسعَى قَدْرَ استطاعتِنا في تثبيتِ آياتِ اللّهِ، ونَشْرِها بينَ الأُمَّةِ، حتَّى تقومَ المِلَّةُ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 193.
(2) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 5/ 283.
(3) القنوجي، فتح البيان: 5/ 421، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 143، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 134.
(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة سبأ، ص: 56.

إيثارُ فعلِ السَّعي ماضيًا:

الزّيادةُ في تخوّف الجاحدين للسّاعة والمُنكرين للبعث

جاء التّعبيرُ بفعلِ السّعي ماضيًا في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ زيادةً في التَّخويف؛ لأنّه لمّا كانت أدلَّةُ السّاعة قدِ اتَّضحت حتَّى لم يبقَ مانعٌ منَ التَّصديق لها إلّا العنادُ، وكان السّياقُ لتهديد من جحدها، قال مُعبِّرًا بالماضي زيادةً في التَّخويف: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ﴾، أي أوقعوا السَّعي ولو مرَّةً واحدةً بشبهةٍ مِنَ الشُّبه[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليّة ﴿سَعَوۡ﴾:

تصويرُ شِدَّة حرص الكافرين لتكذيب القرآن بهَيْأَة السّاعي في طريقٍ يُسابق غيره

السَّعيُ في الأصل هو المشيُ الشَّديد، ويُطلقُ على شِدَّة الحرص في العمل، تشبيهًا للعامل الحريص بالماشي الشَّديدِ المشي في كونه يَكِدُّ للوصول إلى غاية، فقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ أي: (والذين استمرّوا على الكفر)؛ وعبَّر عنه بالسَّعي في الآيات لأنَّه أخصُّ منَ الكفر، وذلك حالُ المشركين المتحدَّثِ عنهم؛ والكلام تمثيلٌ، شُبِّهت هيئةُ تفنُّنِهم في التَّكذيب بالقرآن، وتَطَلُّبِ المعاذير لنقض دلائله - من قولهم: هو سحرٌ، هو شِعرٌ، هو أساطيرُ الأوَّلين، ونحوُ ذلك من أكاذيبهم - بهيئة السّاعي في طريقٍ، يمشي مَشْيًا سَريعًا، يُسابِق غيرَه، ليفوزَ بالوصول، ويسبقُ غيرَه، ويُعجز من يريد اللّحاقَ أوِ السّباقَ[2].

وغرضُ التَّشبيه في الآية هو تصويرُ كُفرهم البالغ ومحاولتِهم النَّيْلَ منَ الدّعوةِ المحمَّديَّة، وجعلُها مُحَسَّةً مشاهَدةً، حتى يتصوّر المتلقّي سعيَهم في بطلان آيات الله بصورة الرّجُلِ الذي يجِدُّ في سعيه، ويُخلِص في تحقيق هدفه؛ ليدركَ في نهاية الآية سِرَّ استحقاقهم أشدَّ أنواع العذاب، فتبدو بَراعةُ التَّشبيه التَّمثيليِّ وقيمتُه البلاغيَّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 448.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 144، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 134.

في نقل التّشبيهِ منَ العقليِّ إلى الحسّيّ، ومنَ الخفيِّ إلى الجَليِّ؛ ومِن هنا يكون تأثيرُه في تقوية المعنى، وتوكيدِه في النُّفوس[1].

نكتةُ تعديةِ السّعي بـ﴿فِيٓ﴾:

بيانُ انغماسِهم في الكيد وإيغالهم في التّلبيس

عُدّيَ فعلُ السّعي في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ بحرف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ الذي يُفيد الظّرفيّةَ، إشارةً إلى أنَّ من سعيِهم محاولتَهم إدخالَ في آيات الله ما ليس منها، وأنّهم يُلبِّسون الحقَّ بالباطل، إذ يُحرِّفون الكلِمَ عن مواضعه، ويُلْقون فيه بالهَذرِ منَ القول، والسَّخَف منَ الكلام، وأنّهم كانوا يخوضون في آيات الله خوضًا بغير حساب، استخفافًا بها، وسخريّةً منها؛ كما حكى القرآن ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت: 26][2].

سرُّ التّعبيرِ بالآيات وجمعِها:

الإشارةُ إلى عمومِ الآيات وتَنوُّعِها وتعدُّدِها

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالآيات مجموعةً في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ لدلالتها على العموم، فهي تشمل كلَّ الآيات التي ذكر الله في كتابه، مرئيَّةً كونيَّةً، أو مسموعةً بيانيَّة[3]؛ فالآيات إمّا كونيّةٌ، كالشَّمس والقمر، وإمّا معجزاتٌ، وإمّا آياتُ الأحكام، ومعنى السّعي في الآيات أنّهم قالوا فيها قوْلًا باطلًا غيرَ الحقِّ، كما يسعى الواشي بالباطل بين النّاس؛ فهؤلاء إنْ نظروا في آيات الكون قالوا: مِن صُنعِ الطَّبيعة، وإنْ شاهدوا معجِزَةً على يد نبيٍّ قالوا: سحرٌ وأساطيرُ الأوّلين، وإنْ سمعوا آياتِ الأحكام تُتْلى قالوا: شعرٌ؛ وهم بذلك كُلِّه يُريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانَهم، ويصدّوا عن سبيل الله[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 143، 144.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآني: 11/ 778.
(3) المكي، المعين على تدبر الكتاب المبين، ص: 428.
(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 16/ 9871، وتعليب، فتح الرَّحمان، ص: 2843.

سِرُّ إضافةِ الآيات إلى ضمير العظمة:

تشريفُ الآياتِ وتعظيمُ شأنها

في إضافة الآيات إلى ضمير العظَمةِ والكبرياء في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ دليلٌ على عظَمةِ شأنِ هذه الآيات، لأنَّها صادرةٌ عن العظيم ﷻ وتقدَّست أسماؤه؛ وفي هذه الإضافة منَ التّعظيم والتَّشريف ما فيها، ممّا يدعو الإنسانَ إلى الايمان بها وتصديقِها[1].

دلالةُ صيغةِ المُعاجَزَة:

الـدَّلالـةُ على التَّكلُّف وبذل الجهد في الفعل

أوثرَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بصيغة المفاعلة في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ لدلالتها على التّكلُّف؛ فالمعاجزة مُفاعَلَةٌ ومشاركةٌ، دالَّةٌ على التَّكلُّف وبذلِ الجهد في المُشاقَّة والمُخاصمة[2]، و﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ جمعٌ لاسم الفاعل (مُعاجِز)، من عاجَزَ - غيرَ عَجَزَ عن كذا أي لم يقدر عليه - يقال: عاجَزَ فلانٌ فلانًا، أي باراه ليُرى أيُّهما يَعجزُ قبل الآخر؛ فعاجزه مثل باراه ليثبتَ أنّه الأفضل، ومثل: سابقَه ونافسه.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالمُعاجزة:

بيانُ تَكرارِ المُحاولة والمجادلة منَ الكفّار

تظهر بلاغةُ الاستعارة في التَّعبيرِ بالمُعاجَزة في قول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾، فهي تُصوِّرُ مُحاولةَ أهل الكفر، واجتهادَهم في مُجادلة أهل الإيمان؛ لأنّ المُعاجزة مُستعارَةٌ للمُشاقَّة مع المؤمنين ومُعارضتِهم، من قبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيّة، فكُلَّما طَلَبَ المؤمنون إظهار الحَّق طَلَبَ هؤلاء إبطالَه، كما يُقال (جاراه في كذا)؛ والمرمى في هذا المجاز أنَّ هؤلاءِ المُشركين يجتهدون في آيات الله تعالى لغاية مُعاجزة المؤمنين، وتحويلِ الأمر إلى جدل عقيم[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 153.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 153، وعبد الملك قاسم، عقد الجمان، ص: 912.
(3) القاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 134، والجبلي، البستان، ص: 148.

أثرُ تعدُّدِ قراءاتِ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو البصريُّ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بفتح العين وحذفِ الألف وتضعيف الجيم[1]، وعلى قراءة الجمهور يكون معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: مُسابقين مشاقّين للسّاعين فيها بالقَبولِ والتَّحقيق، مِن عاجَزَه فأَعْجَزه إذا سابقه فسَبَقه؛ لأنَّ كلًّا منَ المتسابقَيْن يطلب إعجازَ الآخر عنِ اللُّحوق به[2]، فالمعنى مُعاندين؛ وقيل معناه: ظانّين أنَّهم يغلبون الرَّسول وأتباعه؛ وقيل معناه: يحسبون أنَّهم يفوتوننا لإنكارِهم البعثَ والثَّوابَ والعقابَ، فلا نقدر على إعادتهم ومُعاقبتهم[3]! و﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بتشديد الجيم حالٌ مُقدَّرة، معناه: مُبطِّئين مثبِّطين؛ أي: يثبِّطون النّاس عنِ اتِّباع الحقِّ؛ وقيل معناه: يَنسبون المؤمنين إلى العجز[4].

بيانُ جَمْعِ أهلِ الكُفْرِ بَيْنَ ضَلالِهم في أنفسهم وإضلالِهم لغيرهم

فهما قراءتان متواتِرَتان مُتقاربتا المعنى؛ فمَن عجَّز عن آيات الله فقد عاجز الله، ومِن مُعاجزة الله: التَّعجيزُ عن آيات الله، والعملُ بمعاصيه، ومخالفةُ أمره، وكان من صفة كفّار قريش الذين أنزل الله هذه الآيات فيهم أنَّهم كانوا يُبطِّئون النّاس عنِ الإيمان بالله، واتّباعِ رسوله، ويُغالبون رسولَ الله ﷺ، ويحسبون أنَّهم يُعجزونه، ويغلبونه؛ وقد ضَمِنَ الله له نَصرَه عليهم، فكان ذلك مُعاجزتَهم الله[5]؛ فالقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المرادِ.

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قول الله تعالى

الإشارةُ الى بُعْدِ السّاعين في مُحاربة الله، وبُعدِهم من رحمة الله

(1) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 327.

(2) مكي بن أبي طالب، الهداية: 9/ 5886، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 558، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.

(3) ابن خالويه، الحُجَّة في القراءات السبع، ص: 254، والأزهري، معاني القراءات: 2/ 185، والفارسي، الحُجَّة: 5/ 284.

(4) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 481.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 602، والعثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 53.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ ليدلّ على معنى البُعدِ، للإيذان ببُعدِ منزلتِهم في الشّرِّ وسوء الحال[1]؛ وللتَّنبيه على أنَّ المشار إليه جديرٌ بما سيرد بعد اسمِ الإشارة منَ الحُكم، لأجل ما قبْلَه منَ الأوصاف[2]؛ وللإشارة إلى أنّ الموصوفين بالكُفر بالله والتّكذيبِ بآياته والسّعْيِ في محاربة الله وأوليائه: همُ الحقيقون بالبُعد من رحمة الله، وهمُ الأحرى بالجزاء المذكور بعد اسمِ الإشارة.

دلالةُ التّعبير بالعذاب مُنَكَّرًا:

تعظيمُ العذاب وتهويلُ شأنه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعذابِ مُنَكَّرًا في قول الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ للدّلالةِ على سوء عملِهم في صدّ النّاسِ عنِ الآيات؛ والمعنى: (أولئِكَ السّاعون لَهُمْ بسبب ما ذُكِرَ من أوصافهم عَذابٌ عظيم[3]، لا يقادَر قدرُه)؛ دلّ على ذلك تنكيرُ لفظِ ﴿عَذَابٞ﴾، فهو يُفيد تعظيمَ العذاب وتهويلَ شأنه.

دلالةُ ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قول الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ بيانيَّةٌ، لبيان جنسِ العذاب ونوعِه؛ أي: (عذابٌ مِن سَيِّئِ العذاب وأشدِّه)[4].

دلالةُ التّعبير بـ﴿رِّجۡزٍ﴾ مُنَكَّرًا:

تعظيمُ نَوعِ العذاب وجنسِه

الرِّجز هو السَّيِّئ من كُلِّ شيءٍ، فقول الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ معناه: سيّئٌ العذاب، بل إنّه أسوأُ العذاب، وجاءت لفظةُ ﴿رِّجۡزٍ﴾ نكرةً، لتُفيد بيانَ نوع ذلكَ العذابِ وشدَّتِه، بدليل ﴿مِّن﴾ التي لبيان الجِنْسِ، فإنَّ العذابَ أجناسٌ وأنواعٌ[5]؛ فهو أشدُّ من كلِّ عذاب وأسوأه، لا تقواه قواهم[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 142.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/ 142.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 23/ 188.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 359، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 282.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.
(6) آلغازي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 496.

نُكتةُ وصف الرِّجز بـ﴿أَلِيمٌ﴾:

الزّيادةُ في التَّهديد، وبثُّ الرُّعب في نفوس السّاعين في آيات الله معاجِزين

قولُ الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾: أي مُؤلِمٌ موجِعٌ[1]، ووُصِفَ الرِّجزُ بأنَّه ﴿أَلِيمٌ﴾: زيادةً في التَّهديد وبثِّ الرُّعب في نفوسهم، فهي صفةٌ كاشفةٌ أو مؤكِّدةٌ[2]، وهذا الوصفُ مفتاحٌ للتّرهيب منَ العذاب الذي أعدَّه الله الحَكَمُ العَدْلُ للكافرين الّذين يتوهّمون أنّهم قادرون على الإفلات من عذابِ الله، وللكافرين المضلّين الذين يصدّون النّاس عنِ الإيمان بالله وباليوم الآخر وعن سلوك صراط الله المُستقيم.

دلالةُ تعدُّد قراءاتِ ﴿أَلِيمٌ﴾:

لهم عذابٌ مؤلِم، مِن جنس العذاب الموجِع، فهل مِن مرتدِع؟!

قرأ الجمهورُ بتنوين الميم بالكسر في ﴿أَلِيمٍ﴾ في قول الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ نعتًا للرِّجز، كأنّه قيل: (عذابٌ من عذابٍ أليم)؛ فإنّ الرِّجز هو العذابُ، قال الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 59]، وقرأ ابْنُ كَثيرٍ وحَفْصٌ ويَعْقوبُ ﴿مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ بالرّفع صفةً للعذاب مخصِّصة[3]، والرّفعُ أقربُ نظرًا إلى المعنى، والجرّ أقربُ نظرًا إلى اللَّفظ[4].

بلاغةُ المُقابلة بين الآيتين:

إبرازُ المعاني بالمقارنة أدعى للعبرة والعِظَة

جاء قولُ الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ مقابِلًا لقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾، وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ وتتعاضَدُ الآيتانِ بهذه المقابلة، ليتكاملَ الذِّكرُ الحكيم، ويتناهى الوعدُ والوعيد، ويزدادَ كلٌّ منَ التّرغيبِ والتّرهيب قوّةً إلى قوّتِه، عند مُقارنَتِه مع مُقابِلِه.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 212.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.

(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/ 349، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 261، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/ 449.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 194.

سرُّ خُلوِّ نَظمِ الآية الكريمة من تعدُّد المؤكِّدات:

جاء قولُ الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ خاليًا منَ المؤكِّدات - سوى الاسميّة - على الرّغم مِن أنّ إنكار الشّيءِ يستلزم منه إنكارُ تَبيعِه، فالمشركون أنكروا قيامَ السّاعةِ، وذلك يستلزم إنكارَ ما يتبعُ السّاعةَ منَ الجزاء والحساب؛ فقد نُزِّل المنكِرُ منزلةَ خالي الذِّهن منَ الحكم، للإشارة إلى أنَّ أحداث ذلك اليوم، إذا عاينوها بحواسّهم فلا مجالَ للإنكار والجحود يومَئذ[1].

يؤمنُ المنكِرُ إذا رأى العذاب، ويرجو بإيمانه الخلاصَ، ولاتَ حينَ مناص!

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ متقاربانِ لفظًا ومَعْنًى: فإنَّ الرِّجْزَ يدلُّ على اضطِرابٍ، والرِّجْسَ يدلُّ على اختلاطٍ؛ إلّا أنَّ الرِّجْزَ في القرآن الكريم اختصَّ بالعذاب، بخلافِ الرِّجْسِ، فإنَّه يغلِبُ في التَّعبير عنِ القَذَرِ، حسّيًّا كان أو معنويًّا، لِما في القذَرِ مِنَ اللَّطْخِ والخَلْطِ، والرِّجْسُ وإن استُعمِلَ في القرآن الكريم مرادًا به العذابُ - كما في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾ [الأعراف: 71] - إلّا أنَّهُ قَدْ جُعِلَ ما أفضَى إلى العذابِ رجسًا استقذارًا لَهُ، فَلَمْ يخْرُجْ عَنْ أصلِ دِلالَتِهِ، أمّا الرِّجْزُ فلا يَخْرُجُ عَن معْنَى العذابِ، وذلك لِما يُتَصوَّرُ فيه مِن اضطرابٍ وحركَةٍ وجلَبَةٍ؛ إذِ العذابُ النّازِلُ لا بُدَّ فيه لِلْمنزولِ بِهِم مِن أن يَضْطَربوا لأجْلِهِ.

الرِّجزُ مختصٌّ بالعذاب، والرِّجسُ يغلِبُ في التَّعبير عنِ القَذَرِ، حسّيًّا كان أو معنويًّا

وثَمَّ مَلْمَحٌ دِلاليٌّ بين الرِّجْزِ والرِّجْسِ، يومئُ إليهِ الحرفانِ اللَّذانِ وقعَ فيهما الاختلافُ بين الكَلِمَتَيْن - وهما الزّايُ والسّينُ: فإنَّ الرِّجْزَ

(1) مرعي، البلاغة القرآنية في سورة سبأ، ص: 45.

اختصَّ بالعذابِ لِما في الزّاي مِنَ الجهْرِ، والجَهْرُ مِنْ صفاتِ القوَّةِ في الحروفِ، فهو بهذا الاِعْتِبارِ أقوَى مِنَ السّين التي من صفاتِها الهمسُ، والهَمسُ مِن صفاتِ الضَّعْفِ؛ فاختصَّ الرِّجْسُ بِما لَيْسَ في مَعناهُ مِنَ الشِّدَّة التي في الرِّجْزِ[1].

(1) الدوري، دقائق الفروق اللُّغوية، ص: 336 - 358.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-98-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45 : المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سَبإ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-98-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»